

الأدب المقارن أصوله وتطوره ومناهجه  
للطاهر أحمد مكي  
دراسة نقدية

إعداد

الباحث / عمر فتحي عبد الباسط  
باحث ماجستير فى الآداب تخصص / اللغة العربية  
كلية الآداب - جامعة أسيوط

تاريخ الاستلام : ١٧ / ١ / ٢٠٢٤م

تاريخ القبول : ٣٠ / ١ / ٢٠٢٤م



### ملخص:

تعنى هذه الدراسة بتناول جهود الباحثين المصريين في حقل مهم من حقول الدراسات النقدية وهو الأدب المقارن، الذي يهتم بإبراز العلاقات بين الآداب المختلفة، وقد كان للمقارنين المصريين جهد واضح في التعريف بهذا الميدان في الوطن العربي، ويمثل الباحث لهذه الجهود بكتاب "الطاهر أحمد مكي" المعنون (الأدب المقارن أصوله وتطوره ومناهجه)، وقد أراد المؤلف بكتابه أن يتقدم بدراسة الأدب المقارن في الوطن العربي خطوات جديدة، تتوافق مع التطورات التي أصابت هذا الفرع المعرفي، مستفيدًا من جهود "محمد غنيمي هلال"، مبرزًا لأهم التطورات التي حدثت، محاولًا التوفيق بين وجهات النظر المختلفة التي تهتم بدراسة الأدب المقارن، محاولًا إبراز مفهوم الأدب المقارن، ومنهجه، وغاياته.

### Abstract:

The Study is Concerned With The Efforts of Egyptian Researchers in an important field of Critical Studies, namely "Comparative Literature", that is interested in studying the relationships between different literatures. The Egyptian comparators had a clear effort to introduce this field in the Arab world. The researcher represents these efforts with a book by Dr. "Al Taher Ahmed Makki" entitled (comparative literature its origins, development and approaches). The author through this book wanted to advance the study of Comparative Literature in the Arab world new steps, consistent With the developments that hit this branch of knowledge, taking advantage of the efforts of. "Mohammed ghunaimi Helal", highlighting the most important developments that have occurred, He has tried Reconciling the different points of view that are interested in the study of comparative literature, trying to highlight the concept of Comparative Literature, its methodology, its purpose.

## مقدمة:

يمثل كتاب الأدب المقارن أصوله وتطوره ومناهجه انطلاقة جديدة نحو تطور دراسة الأدب المقارن في مصر، بما يتلاءم مع تلك التغيرات التي أصابت النظرية المقارنة، وظهور مناهج أخرى لدراستها كالمنهجين الأمريكي والروسي، فقد كان تطور الأدب المقارن في مصر منذ تأليف كتاب الأدب المقارن للدكتور غنيمي هلال بطيئاً، مقتصرًا على المنهج الفرنسي - التاريخي - نظريًا وتطبيقيًا، باستثناء بعض الإشارات اليسيرة إلى المنهج النقدي الأمريكي، ومن ثم ظهرت الحاجة إلى دراسة التطورات التي أصابت النظرية المقارنة، بتعدد مناهج دراستها، ومن ثم فقد كان ظهور هذا الكتاب عام ١٩٨٧م - بفارق خمسة وثلاثين عاماً عن كتاب الدكتور "غنيمي هلال" - خطوةً جديدةً إلى توسيع دائرة النظرية المقارنة، بالانفتاح على المناهج المقارنة الأخرى الأمريكية والسلافية، واستكمالاً لما بدأه الدكتور "محمد غنيمي هلال" من قبل.

ويذكر المؤلف غايته من تأليف كتابه، إذ يقول: "كان وراء تأليفه الرغبة في أن نتقدم خطوةً بعملٍ عظيمٍ قام به المرحوم الدكتور "محمد غنيمي هلال" منذ أكثر من خمسة وثلاثين عاماً؛ لنقدم تصورًا جديدًا متكاملًا لعلم الأدب المقارن في ضوء المتغيرات التي أصابت عصرنا، والإفادة من تفجر المعرفة حولنا، وأن نلحق بالركب العالمي في هذا المجال".<sup>(١)</sup>، فالمؤلف مدركٌ تمامًا للتغيرات التي أصابت النظرية المقارنة، وهو يريد بهذا الكتاب أن يتلافى تلك الأخطاء التي وقع فيها السابقون، باهمالهم لمتابعة تلك التطورات والتغيرات تارة، وإشارتهم المقتضبة لتلك التطورات تارة أخرى.

وتلك مهمة شاقة لا بد أن يتصدى لها أحدٌ، وأن يحمل راية التطورات التي بلغت الدراسات المقارنة، وقد اختار المؤلف أن يتصدى لها، وأن يحمل البحث في الأدب المقارن إلى حافة الأعوام التي يعيشها، تاركًا لغيره أن يمضي به في قادم الأيام عبر مفاجآت عصره ومذهلاته، ويذكر المؤلف متواضعًا أن دراسته تلك "لم تبلغ حد

الكمال، ولكنه ما ترك من جهده شيئاً، وآثر أن تخرج للقارئ على هذه الصورة خير من أن لا تخرج أبداً، والزمن كفيلاً بتقويم ما داخلها من وهنٍ، أو شابها من تقصيرٍ" (٢)، وهذه المهمة الشاقة قد أفرزت كتاباً مهماً في الدراسات المقارنة العربية، أبدع فيه المؤلف فأخرج أفضل ما عنده مطلعاً على التطورات التي حدثت في الساحة النقدية.

### جذور الأدب المقارن في الأدب العربي القديم:

وقد دفعت رغبة "الطاهر مكي" في إثبات وجود بذورٍ للأدب المقارن في التاريخ القديم إلى الغوص في التراث العربي محاولاً تلمس تلك الجذور في كتابات المؤلفين العرب، إذ يرى المؤلف أن المقارنة "كعلم له منهج وقواعد وليدة النصف الثاني من القرن التاسع عشر، إلا أنها كظاهرةٍ قديمةٍ قدم الأدب نفسه". (٣)، فإذا كان الدكتور "محمد غنيمي هلال" قد انطلق في كتابه بالحديث عن نشأة الأدب المقارن في الآداب الأوروبية قديماً وحديثاً، فإن الدكتور "الطاهر أحمد مكي" - منطلقاً من تجربة الدكتور "غنيمي هلال" - يبدأ موسوعته المقارنة بالحديث عن أصول نشأة الدراسات المقارنة ولكن في الأدب العربي، وإذا كان الدكتور هلال قد أخرج الموازنات من حقل الدراسات المقارنة، فإن الدكتور الطاهر مكي لا يهتم كثيراً بإدخالها في حيز المقارنة من عدمه، بقدر ما يهتم بإثبات فكرة أن الأدب المقارن ليس حديث العهد، ولكنه موجود من العصور السالفة، ويمكن التنقيب عن أصوله في التاريخ القديم.

ومن ثم ينقب الدكتور "الطاهر أحمد مكي" عن أصول هذا الفرع المعرفي في التاريخ القديم؛ ليثبت وجود جذوره البعيدة، فمنذ أن وجد الأدب وجدت الموازنة بين نصوصه لتقييمها، أو لمجرد حب الاستطلاع، أو لغاياتٍ تربويةٍ، ومن ثم يرى المؤلف أن الموازنات في الأدب العربي ما هي إلا "مران على الفهم الصحيح، وتربية للحاسة الفنية، التي كانت تعتمد عليها الموازنات في استشعار التشابه بين النصوص، وفي الأسباب التي أدت إليه" (٤)، ومن ثم فالموازنات - من وجهة نظر المؤلف - في الأدب العربي القديم، هي الصورة الأولى للمقارنة بمفهومها الحديث.

ويرى المؤلف أن كثرة النقائض وشيوع المعارضات في الأدب "قد ساعدت على قيام الموازنات وازدهارها، مما ساعد بدوره على رواج النقائض بين الشعراء، وقد نشأت النقائض والمعارضات والموازنة مختلطةً في بداية الأمر فمن ينقض يعارض والحكم يوازن، ومع الزمن سار كلٌّ في طريقٍ، دون أن يستقل تمامًا عن البقية"<sup>(٥)</sup>، وفي حديثه عن المعارضات يقدم المؤلف رأيًا يتصل اتصالاً مباشرًا بقضية التأثير والتأثر في الدراسات المقارنة، فالشاعر المعارض يتأثر بشكلٍ أو بآخر بالقصيدة التي يعارضها، ويخضع هذا التأثير لطاقت يحددها المؤلف في قوله: "تجيء القصيدة المعارضة دون الأصل عادةً أو قريبةً منه، أو على مستواه، وقد تفوقه أحيانًا، تبعًا لطاقت الشاعر الذهنية والنفسية والمزاجية، ولا يمكن إطلاق حكم واحد عليها جميعًا، فقد يسقطها التقليد، وقد تتخذ من الأصل منطلقًا تتجاوزوه، وتحلق فوقه عاليًا في سماء الشعر"<sup>(٦)</sup>، فالمتلقي لعملٍ أدبيٍّ ما قد يتفاعل معه تفاعلًا خلاقًا، فينتج عملاً جديدًا يحمل روح العمل القديم، لكن بطريقةٍ إبداعية تجعل النص المتأثر، يبدو وكأنه نتاج جديد لم يتأثر بغيره.

ويتناول المؤلف الأصالة والتقليد وارتباطهما بقضية التأثير والتأثر في الدراسات المقارنة، إذ يرى الدكتور "الطاهر مكي" أن الأصالة تنهض بدءًا على احترام قواعد الفن، مضافًا إليها دور الفنان وطابعه الشخصي في تناول القضايا، كما أن الأصالة تتضمن في داخلها جانبين:

١- ذاتي ويعني أعمق ما هو ذاتي في الفنان.

٢- موضوعي ويعني نسخ الموضوع طبيعيًا فحسب.

ومن ثم فإن المؤلف يرى أن "الأصالة الحقيقية في الفنان وفي العمل الذي يبدهه تقوم على أن يتعمق وينشط الفكرة التي يتكون منها مضمون قضية حقيقية، وأن يتملك الفكرة كاملة فلا يزيّفها أو يفسدها بأن يقحم عليها عناصر غريبة عنها مأخوذة

من داخله أو خارجه"<sup>(٧)</sup>، إذن فالدكتور مكي يعطي الأديب أو الفنان الحرية في تشكيله للفكرة التي تأثر بها دون المساس بجوهرها بتزييف أو إقحام، فالأصالة لا تمنع التفاعل مع الآخرين، وإنما تعني قدرة الأديب على تلقي فكرة ما فيعيد صياغتها بما يتفق مع بيئته ومفردات لغته، فينتج نصًا جديدًا لا تظهر عليه علامات التقليد الأعمى.

ويرى الطاهر مكي أن "الأصالة نسبية، ونسبيتها شيء لا مفر منه؛ لكي يصبح للعمل الأدبي قيمة، فالأصالة الكلية أو الإبداع المطلق شيء لا وجود له، إذ يمكن لكاتب ما أن يستغل موضوع كاتبٍ آخر أو فكرته أو شخصياته، وقد يتمثل المبدع فكرةً في عصرٍ ما، أو بلدٍ أجنبي، أو جنسٍ فنيٍّ آخر، فيصهرها ويصقلها مع الاحتفاظ بجوهرها، فيمنحها شكلاً جديدًا بالحذف والإضافة والتغيير والإصلاح والتقديم، لتوائم العصر الذي نُقلت إليه، ولترضي ذوق الجمهور والمتلقين له، واستجابةً لتقنية الجنس الجديد الذي تصاغ فيه"<sup>(٨)</sup>، فالأصالة كما يرى المؤلف لا تعني الإتيان بالجديد الذي لم يأت به أحد، إنما قد يبدع الكاتب في اختيار موضوعٍ ما سبقه غيره في تناوله، فيخرجه في ثوب جديد تختفي معه آثار النقل والاقتباس.

ومن ثم فلا يجد المؤلفُ تعارضًا بين "القدرة الإبداعية للأديب، التي تذوب معها آثار النقل والاقتباس، وبين أصالة الفكرة التي تأثر بها"<sup>(٩)</sup>، إذ يكفي الأديب أن يدفع بالفكرة التي يقع عليها في طريقٍ جديدٍ، وأن يضيف عليها من شخصيته وأسلوبه ما يجعلها شيئاً تميز به، وتعبّر عن عبقريته.

### العوامل المساعدة في نشأة الأدب المقارن في العصر الحديث:

بين المؤلف في كتابه عددًا من العوامل التي ساعدت في التمهيد لنشأة الأدب المقارن، وهي:

١ - الرومانسية<sup>(١٠)</sup>: وقد كان للرومانسية دورٌ فعالٌ في التمهيد لنشأة الأدب المقارن، وفي توجيه الدراسات الأدبية وجهة تنتهي بها إلى المقارنة، وذلك بما

أثارته في نفوس النقاد من رغبة الموازنة والمقارنة، ومعرفة ظلالها وتأثيرها في أدباء البلاد الأخرى.

٢- **الهجرات والرحلات** <sup>(١١)</sup>: لا ينكر المؤلف الدور المهم الذي لعبته في ازدياد التبادل الثقافي والاجتماعي، ويكفي المؤلف أن يشير إلى هجرة العرب في القرن التاسع عشر إلى الأمريكيتين، وقد أفادو كثيرًا من هذه الهجرة، وكذلك هجرة المصريين إلى بلاد العالم المختلفة بعد حرب ١٩٦٧م، فأفادو واستفادوا، وقامت على أكتافهم النهضة الثقافية والجامعية في العالم العربي بأكمله.

ويلاحظُ أن الدكتور "الطاهر أحمد مكي" قد حاول في المبحثين السابقين إثبات الجذور القديمة للأدب المقارن والبدايات الأولى له في الأدب العربي وفي الآداب الأوروبية، مما يعني أنه لم ينشأ من فراغ، وإنما سبقته محاولات كثيرة ساهمت في توجيه الأنظار إلى المقارنة، ومحاولة دراسة التأثير والتأثر بين الأدباء، كالموازنة وإن لم تكتمل فيها الأسس الفنية للمقارنة.

وبعد أن يعرض المؤلف لجذور الأدب المقارن، والعوامل التي ساعدت على نشأته، يبدأ في مبحث آخر يعرض تاريخ هذا الفرع المعرفي، فيتناول تاريخ نشأته في فرنسا موطنه الأول، ثم يطوف بعد ذلك في بقية الدول الأوروبية، والولايات المتحدة الأمريكية، والاتحاد السوفيتي، ثم أخيرًا العالم العربي، وهو في كل هذا يسردُ تفصيلاتٍ كثيرة، إنه يتابع باستقصاء مظاهر النشأة والتطور للأدب المقارن في معظم دول العالم، فيتتبع المؤلفات والمؤتمرات والقضايا والمجالات التي تتصل بهذا الفرع المعرفي، وكذلك المناهج التي تتطور والمفاهيم التي تتضح.

وإذا كان الدكتور "الطاهر مكي" قد ذكر من قبل أنه ينطلق من تجربة الدكتور "غنيمي هلال" في الأدب المقارن، فإنه يحتفي بتلك التجربة الرائدة في هذا المجال، وإن كان يأخذ على الدكتور هلال "التضخم الذي آل إليه الكتاب بإقحام موضوعاتٍ تتصل

بالنقد الأدبي وصلتها بالمقارنة هامشية، كالحديث عن المذاهب الأدبية الكبرى، بالإضافة إلى أن الدكتور هلال قد وقف ببحثه تاريخًا وعرضًا عند المدرسة الفرنسية وحدها، على الرغم من تواجد آراء أخرى تختلف عنها كوجهة النظر الأمريكية، بالإضافة إلى الأفكار الألمانية والإيطالية التي تستحق النظر والتأمل<sup>(١٢)</sup>، ونتيجة لهذا التطور الذي أصاب النظرية المقارنة على مدى ما يزيد على عقود ثلاثة مضت على تأليف كتاب الدكتور غنيمي هلال، ونتيجة لقلة المتابعة الدورية لهذا التطور في الوطن العربي، فإن المؤلف يتصدى لتلك المهمة، ويأمل أن يتقدم بموسوعته تلك خطوة جديدة إلى الأمام، سيقدم من خلالها المؤلف نهجًا جديدًا في دراسة الأدب المقارن في الوطن العربي، يتوسط بين منهج المدرسة الفرنسية والمدرسة الأمريكية.

### منهج الطاهر أحمد مكي في دراسة الأدب المقارن:

يحاول الدكتور الطاهر أحمد مكي في دراسة الأدب المقارن - في محاولة توفيقية منه - أن يلتزم نهجًا وسطًا بين منهج المدرسة الفرنسية المحافظة، ومنهج المدرسة الأمريكية المتحررة، وهو لا يريد بتلك التوفيقية أن يضع قيودًا تطوق هذا العلم وهو ما يزال في مرحلة الطفولة، إنما يحاول أن يحلل الظواهر بطريقة منهجية، مع حذره الشديد من أن تلقي به المغامرة في مهاوي الخطأ أو التناقض.

يبدأ "الطاهر مكي" منهجه<sup>(١٣)</sup> في دراسة الأدب المقارن بالحديث عن إشكالية المصطلح، إذ يرى أن مصطلح الأدب المقارن تعبير ناقص وضروري معًا، ويفسر الطاهر مكي مقولته تلك، بقوله:

١- فنقص مصطلح الأدب المقارن يعود إلى أنه لَوْنٌ من الدراسات الأدبية، وليس إبداعًا خالصًا، فالمقارنون يوازنون بين أدبيين أو أدبين، ومن ثم فإنهم باحثون وليسوا مبدعين، بالإضافة إلى أن التطور والتجديد الذي أصاب النظرية المقارنة كان يلزم أن يشمل المصطلح أيضًا.

٢- وضرورته تعود إلى أن "استعماله يعود إلى قرن مضى، ولم يعد ممكناً أن يترك مكانه لتعبير آخر أقل حيرة وأدنى غموضاً، وإذا كانت هناك مصطلحات بديلة مقترحة، قد اقترحها غنيمي هلال من قبل مثل "الآداب الحديثة المقارنة" و "تاريخ الآداب المقارنة" و "التاريخ الأدبي المقارن" وغيرها، إلا أن المؤلف يردّها جميعاً ولا يقبلها، ووجه اعتراضه عليها أنها بالغة الطول - مقارنةً بالمصطلح الشائع -، أو موعلة في التجريد"<sup>(١٤)</sup>، ومن ثم لم تنجح تلك المصطلحات في أن تفرض نفسها وتصد في مواجهة المصطلح الشائع (الأدب المقارن)؛ نظراً لكثرة استعماله وشيوعه.

وبما أن محاولة المؤلف التوفيقية تتسم بالتنوع والانفتاح على المناهج الأخرى في دراسة الأدب المقارن، فإنه يقدم لنا عدة تعريفاتٍ للأدب المقارن، تعبر عن وجهتي نظر الدراسة المقارنة التاريخية والنقدية، نذكر منها تعريف فان تيجم الذي يعرفه بأنه: "العلم الذي يدرس على نحوٍ خاصٍ آثار الآداب المختلفة في علاقاتها المتبادلة"<sup>(١٥)</sup> أي أن فان تيجم قد حصر الأدب المقارن في إطار دراسات التأثير والتأثر، إذ لا يعنيه أبداً دراسة المتشابهات بين الآداب دون وجود علاقات اتصالٍ تثبت تأثيراً لأدب في غيره من الآداب، وقد تبع فان تيجم في توجيهه هذا معظم المقارنين العرب، وعلى رأسهم الدكتور "غنيمي هلال"، وإذا كان "الطاهر مكي" نفسه يتبع منهج التأثير والتأثر، إلا أنه لم يقصر الأمر عند هذا المنهج، إنما تناول التطورات المهمة التي أصابت منهج الأدب المقارن على مدار ثلاثة عقود مضت على تأليف كتاب الدكتور "محمد غنيمي هلال".

وفي مقابل هذه النظرة الضيقة في مجال المقارنة يقدم المؤلف تعريفاً لهنري ريماك يوسع فيه مفهوم المقارنة، إذ هو - أي الأدب المقارن - "دراسة الأدب خارج حدود بلدٍ معين، ودراسة العلاقات بين الأدب من جهة ومجالات أخرى من المعرفة والاعتقاد، مثل الفنون الجميلة، والفلسفة، والتاريخ، والعلوم الاجتماعية، والعلوم والدين

وغير ذلك من جهةٍ أخرى، وباختصار هو مقارنة أدبٍ معينٍ بأدبٍ آخر أو آدابٍ أخرى، ومقارنة الأدب بمجالاتٍ أخرى من التعبير الإنساني<sup>(١٦)</sup> وقد حاول ريماك من خلال هذا التعريف أن يتجاوز المآخذ التي أخذت على المدرسة الفرنسية، وتوسيع مجال الأدب المقارن من خلال تقديم مفهومٍ أوسع للعلاقات الأدبية، من خلال المقارنة بين الآداب وبعضها، وبين الآداب ومجالات التعبير الإنساني الأخرى.

وبعد أن ينتهي المؤلف من ذكر هذه التعريفات، يضع تعريفاً يجمع بينها جميعاً، فيعرفه بقوله: "الأدب المقارن دراسة العلاقات بين أدبين قوميين أو أكثر"، ويعلق الطاهر مكي على التعريف بقوله "وهو تحديد يرضي الجميع ويتفق واقعاً مع مظاهر النشاطات المختلفة في مجال الأدب المقارن"<sup>(١٧)</sup>، وقد قصد المؤلف من تعريفه هذا أن يفتح على المناهج الأخرى ولا يقصر دراسة الأدب المقارن على دراسات التأثير والتأثر، بل يتعداها إلى دراسة التشابه بين النصوص والآداب، فبذكرة لكلمة العلاقات لم يحدد علاقات التأثير أو غيرها، فالتحديد يصيب مفهومه الذي تبناه بالتناقض والقصور.

ولا يترك المؤلف تعريفه دون توضيح دقيق، فيوضح تعريفه لكلمة (علاقة) من وجهة نظر الأدب المقارن، إذ تعني "اتصالاً بين كاتبين أو أدبيين عن طريق اللقاء، أو تبادل الرسائل، أو قراءة أحدهما مؤلفات الآخر، أو التقاط أفكاره بطريقةٍ ما"، ولكن المؤلف يتساءل عن التشابه في الأفكار دون قراءة أو استعارة من الآخر، هل يدخل في مفهوم العلاقة؟ أو بصورةٍ أخرى هل يقتصر هذا المفهوم على الاتصال بين الآداب اتصالاً مشروطاً بعلاقة الأسباب والمسببات، كتأثر توفيق الحكيم ببرناردشو؟ أم أنه يمكن أن تتجاوزها إلى حدود التشابه دون تأثير، كالتشابه بين ثلاثية نجيب محفوظ، وثلاثية الكاتب الإيطالي فاسكو براتوليني؟<sup>(١٨)</sup>، إنَّ مثل هذه الدراسة (التأثير والتأثر، والتشابه) تدخل في نطاق الدراسات المقارنة في ضوء عموم التعريف الذي وضعه المؤلف للأدب المقارن.

لكن ماذا عن التعارض بين وجهات النظر بين المدرسة الفرنسية والمدرسة الأمريكية، فالمدرسة الفرنسية التي تهتم بالعلاقات التاريخية بين الآداب، - أي علاقة الأسباب بالمسببات - ترى أن مثل هذا التشابه لا يدخل في نطاق العلاقات، أما المدرسة الأمريكية بنظرتها الواسعة للأدب المقارن، ترى أن الأدب المقارن لا يدرس العلاقات وإنما الأدب بوجه عام حين تتجاوز الدراسة الحدود القومية له، مما يعني أن مثل هذه الدراسات تدخل في نطاق بحثه<sup>(١٩)</sup>، لكن الدراسة تتساءل هل تستطيع هذه المحاولة التوفيقية التي قدمها المؤلف الصمود أمام الصراع الذي يحدث بين الجانبين التاريخي والنقدي؟، ويبدو أن الإجابة المقنعة هي ضرورة التعايش بين الجانبين دون محاولة هيمنة أحدهما على الآخر، وهذا التعايش يعود بدوره بالنفع على إثراء النظرية المقارنة وعدم حصرها في طريق واحد فقط.

### العلاقات الأدبية:

يقسم المؤلف العلاقات إلى ثلاثة أقسام، هي علاقات الاتصال والتداخل والشيوع، ويرجع المؤلف السبب في هذا التقسيم إلى أن العلاقة يمكن أن تعود إلى صلة أدبية فردية، أو إلى تداخل بين الحركات والأفكار المتعددة، وقد تحدث عن موضوع متداول على امتداد العصور وبين مختلف الآداب.

### أولاً: علاقة الاتصال "مباشرة":

تفترض علاقة الاتصال واقعا وجود نوع من المقارنة، وطرفاها أدبان يشترط فيهما أن ينتميا إلى قوميتين مختلفتين لغة، أي أن العلاقة تحدث في هذه الحالة عن أدب يتجاوز حدوده القومية، أو إذا أردت يمكن أن نتحدث عن مصادر وتأثيرات.

ويقصد "الطاهر مكي" بعلاقة الاتصال الأدبية بين مؤلفين، أو عمليين، أو أكثر، يخضع أحدهما، أو هما معاً في الوقت نفسه، لإمكانية الانتقال، أو العلاقة الشخصية الذاتية، وتقسّم أطراف علاقة الاتصال إلى مرسلٍ ومتلقيٍّ ووسيط، وينكر

المؤلف أن هذا التحديد يفتح إمكانات واسعة جدًا أمام البحث المقارن، وقد صنفها إلى تصنيفين، هما :

١- التصنيف الأول هو الذي يجيء نتيجة طبيعية للتمييز الذي يجب أن نضعه في الحساب حين نقيم المقارنة بين أعمال أدبية حقًا، وبين مقارنةٍ أخرى أحد طرفيها عمل غير أدبي، ولكنه ينتج عملاً أدبيًا أو يؤثر فيه .

٢- التصنيف الثاني: هو الذي أطلق عليه المؤلف "اسم الوثائق المقارنة"، وهو نوع من المقارنة يستهدف البرهنة عن طريق الوثائق على وجود تبادل ثقافي حقيقي، وفكرة التوثيق تنظر إلى العمل الأدبي بوصفه وثيقة فحسب، وقد تكون هذه الوثائق رحلات، أو قراءات، أو دراسة لغات، أو وسائل أخرى<sup>(٢٠)</sup>، وهذه العلاقة هي الأقرب في منهجها إلى الأدب المقارن من وجهة نظر المدرسة الفرنسية، التي تفترض وجود وثائق أو أسباب أدت إلى حدوث الاتصال بين الآداب المختلفة.

ثانيًا: علاقة التداخل "خفية غير ملموسة":

والقسم الثاني هو علاقة التداخل، ويذكر المؤلف أن غايتها "الظواهر التي تتداخل أو تتوافق، وتنتمي إلى عصر محدد، وإلى عددٍ من البلدان في الوقت نفسه، ويمكن أن نطلق على دراستها الاسم الذي تنطوي تحته هذه المجموعة ويميزها عن غيرها، كالأدب الإسلامي، والأدب العربي، والأدب الأوروبي"<sup>(٢١)</sup>، ويعني بها المؤلف العلاقات الأدبية العالمية حين لا يكون أحد طرفيها، أي لا المرسل ولا المتلقي، عملاً أدبيًا محددًا، أو مؤلفًا بالذات، ويمثل المؤلف لتلك العلاقة بعددٍ من الدراسات التي تنطوي تحتها، منها:

١- أن تدرس جنسًا أدبيًا معينًا، كتأثير المقامة العربية في نشأة رواية الصعلكة في إسبانيا، وشاعت في القرنين السادس عشر والسابع عشر، وتصور الطبقة الدنيا في المجتمع، ويمثل لها المؤلف برواية "حياة لثريو دي تورمس" لمؤلف مجهول،

وفيها ينتقل البطل بين عددٍ من المهن الحقيرة، فيصير شحاذًا وخادمًا ومتشردًا وسارقًا وفاتكًا، وسقاءً ودلالًا، ويتخذ لنفسه امرأة لا يبالي إن كانت خالصة له، أم خلية قسيس يباركها، وهو فن بلغ أوجه برواية "قزمان الفرجي" للإشبيلي "ماتيو أليمان"، وشاعت بعد ذلك في أنحاء أوروبا وأمريكا<sup>(٢٢)</sup>، ويحدد المؤلف صور تأثير المقامة العربية في رواية الصعلكة في عددٍ من المؤثرات التي لا تجيء صدفة، منها: أن كلاً منهما حكايةٌ على لسان المؤلف، يتكلم فيها بضمير المتكلم، ويروي وقائع كأنها حدثت له ذات طابعٍ هجائي، ويسافر البطل على غير منهج، ويعيش حياة فقيرة بائسة<sup>(٢٣)</sup>، مما يظهر الشبه الواضح بين أبطال المقامات العربية، وبين أبطال قصص الصعلكة الإسبانية.

٢- أن تدرس شكلاً من أشكال الفكر عندما يتمثل الأدب موادًا غير أدبية<sup>(٢٤)</sup>، مثل الوجودية وتأثيرها في الأدب العربي الحديث، أو أدب الغرب الأمريكي وتأثيره في الرواية الفرنسية أو الرحلة إلى مصر في الأدب الفرنسي.

### ثالثاً: علاقة الشيوخ:

أما عن علاقة الشيوخ فهي التي تتجاهل الحدود التاريخية، إلى جانب تجاهلها الحدود اللغوية والقومية، لأن دراسة موضوعٍ ما، أو تطور شخصية مسرحية محددة، يمكن أن يتسع لقرون عديدة مما يمكن أن يدرس أيضاً تحت عنوان الأدب العام.

وتُعنى علاقات الشيوخ "بكل الموضوعات والقضايا الأدبية التي تنتقل من أدبٍ إلى آخر، ويستبعد كما هو الحال دائماً كل الدراسات التي تقوم في نطاق الأدب القومي الواحد، حتى لو كان محورها شخصية أسطورية متميزة أخذت طريقها إلى المجال العالمي، كدراسة شخصية الصعلوك في الأدب الإسباني، أو عنتره في الأدب العربي، أو جان دارك في المسرح الفرنسي، فهي لا تعني الأدب المقارن ما دامت محصورة في نطاق الأدب القومي الذي تنتمي إليه"<sup>(٢٥)</sup>، وما يعنيه المؤلف أن هذه

الموضوعات تأخذ اهتمام الأدب المقارن حين يحدث التفاعل أو التلاقي بينها وبين موضوعات أخرى تنتمي إلى أدب قومي آخر.

ويفرق المؤلف بين علاقات الاتصال وعلاقات الشيع، إذ تتطلب علاقة الاتصال "وجود تأثيرات مؤكدة أو مشكوك فيها، لكنها ممكنة احتمالاً، أما علاقة الشيع التي تتصرف إلى دراسة الموضوعات، لا تتطرق من صلة مؤكدة، وإنما تلح على التوافقات والتشابهاة في الموضوع"<sup>(٢٦)</sup>، فعلاقات الاتصال أكثر التصاقاً بالمدرسة الفرنسية التي تتطلب وثائق للمقارنة، في حين أن علاقات الشيع أكثر التصاقاً بالمدرسة الأمريكية التي تبحث عن علاقات التشابه بين النصوص الأدبية.

وقد أورد المؤلف مثلاً لعلاقات الشيع، وهو مسرحية (لعنة الشك) التي كتبها "تيرسو دي مولينا" وهو اسم مستعارٌ كان يكتب تحته الراهب الإسباني "جبرائيل تيبث"، وفيها يلتقي السمو الفكري لشاعر مسرحي والمعرفة الواسعة لرجلٍ لاهوتي، وجاءت فيما يبدو صدًى للصراع الذي كان دائراً في أوروبا في تلك الفترة بين الأوساط المسيحية المثقفة حول عقيدة الغفران<sup>(٢٧)</sup>، وهكذا فقد فرق المؤلف بين ثلاثة أنواع للعلاقات الأدبية، وربما يكمن خلف هذا التفريق رغبة المؤلف في أن يحرر الدراسة المقارنة من سيطرة وجهة نظر ما، فالمجال متاح لكل وجهات، فلا هيمنة للمدرسة التاريخية أو المدرسة النقدية، ولا يغلق الباب أمام مدارس أخرى تجمع بين منهج المدرستين.

### مفهوم الأدب في المقارنة:

بعد أن ينتهي المؤلف من عرض تعريفات الأدب وعلاقته بالتجربة والتوصيل، ينتهي إلى مفهوم الأدب من وجهة نظر المقارنة، إذ يرى الدكتور مكي أن تعريفات الأدب التي سبق أن عرضها تقوم على "اتجاهات جمالية خالصة، لكنه يبقى هناك مفهوم آخر أوسع للأدب، يمتد به إلى كل ما يطلق عليه الآن اسم الثقافة، فالأدب وثيقة، ويمكن دراسة نصه المخطوط أو المطبوع بهذا الوصف بعيداً عن طابعه

الجمالي، وهو فهمٌ كان محبباً إلى العقلية الوضعية، وطبقاً له يدخل في عداد الأعمال التشريعية والفلسفية والتربوية، ومن بابٍ أولى تلك التي تختلط حدودها بحدود الأدب، كالتاريخ والخطب والرسائل والدراسات والحوار، فهي تهتم دارس الأدب في جوانب منها على الأقل، وهو ما يفسر لنا أن كثيراً من تواريخ الأدب أفسحت مجالاً واسعاً لأعمال وجوانب غير أدبية، كما فعل "جوستاف لانسون" في كتابه (تاريخ الأدب الفرنسي) و"جورجي زيدان"، و"أحمد حسن الزيات"، و"مصطفى صادق الرافعي" في تأريخهم للأدب العربي<sup>(٢٨)</sup>، ولعل "الطاهر مكي" يتفق فيما ذهب إليه مع دانييل هنري باجو للأدب المقارن، بقوله: "هو الفن المنهجي الذي يبحث في علاقات التشابه والتقارب والتأثير وتقريب الأدب من مجالات التعبير والمعرفة الأخرى، أو أيضاً الوقائع والنصوص الأدبية فيما بينها، المتباعدة في الزمان والمكان أو المتقاربة، شرط أن تعود إلى لغات وثقافات مختلفة، تشكل جزءاً من تراثٍ واحدٍ، من أجل وصفها بصورة أفضل، وفهمها، وتدقيقها"<sup>(٢٩)</sup>، فالتعريف يجمع بين المنهجين التاريخي والنقدي في الأدب المقارن، فيهتم بدراسات التأثير إلى جانب دراسات التشابه وعلاقات الأدب بغيره من مجالات التعبير والمعرفة الأخرى.

ومن ثم يرى "الطاهر أحمد مكي" أن الباحث المقارن يفهم الأدب بمعناه الشامل هذا "لأن المقارن عند التطبيق لا يُقَوِّمُ مادة عمله جماليًا، وإنما في ضوء علاقتها بمادةٍ أخرى، أو في نطاق المؤثرات التي أحدثتها، وكلاهما المؤثر والمتأثر، ليس من الضروري أن يكون عملاً أدبيًا من الدرجة الأولى، فليس كل الذين تأثروا بأمير الشعراء أحمد شوقي في المسرح العربي من الشعراء العباقرة، وليست مصادر الشاعر الإنجليزي الأكبر شكسبير من النوع الممتاز كلها، وأعظم المؤلفات العربية تأثيراً في الآداب الأجنبية كتاب ألف ليلة وليلة، كما أن كتاب كليلة ودمنة في صورته العربية ترك أثراً واضحاً في أدب الخرافة الأوروبي، وكانت مقامات الحريري مصدرًا لأدب الصعلكة أو ما يعرف باسم البيكاريسك في الآداب الأوروبية<sup>(٣٠)</sup>.

ومن ثم يشترط الطاهر مكي أن يكون المقارن واسع الثقافة، ولا يقتصر اطلاعه على نتاج الأدباء فقط، بل عليه أن ينظر في نتاج الأدباء وغير الأدباء، لذلك يقول: "المقارن يتعامل مع مؤلفات أدبية ذات قيمة محدودة تأثر أصحابها بأديب كبير، أو أثرت هي في أديبٍ عظيمٍ، وأحياناً يجد نفسه أمام عملٍ مؤثرٍ لا يمكن أن يوصف بأنه أدبي على الإطلاق، لقد أثر نيوتن وهو رياضي وفيلسوف وعالم في الفلك والطبيعات، في الكاتب والشاعر الفرنسي فولتير وكان من مصادر إلهامه، دون أن يعني ذلك بأية حال أن نيوتن كان أديباً أو فنانياً، وكان الفيلسوف الهولندي سبينوزا من المصادر الهامة التي تركت أثراً واضحاً في أدب روسو، دون أن يعد في زمرة الأدباء بحال"<sup>(٣١)</sup>، لذلك يرى المؤلف أنه في مثل هذه الحالات يكون الباحث بصدد "مبادلات ثقافية تتجاوز حد الأدب، ولكنها تهم الأدب المقارن، وربما لهذا السبب فضل كاريه أن يستخدم مصطلح "علاقات فكرية" بدل "علاقات أدبية" لكي يتجاوز هذه الصعوبات، ويجعل من اهتمامات الأدب المقارن موضوعات تقع أو أحد طرفيها خارج نطاق الأدب، لكن المؤلف يعترض على استخدام كلمة "فكرية" بدل كلمة "أدبية"؛ لأن كلمة فكرية لا تحل المشكلة فيما أرى؛ لأن استخدامها يلغي الأدب نفسه من مجالات الأدب المقارن، ويجعل منه علماً لدراسة تاريخ الأفكار المقارنة، وهي قضايا يمكن أن تدرس فيه، وتمثل فصلاً في كتابه، ولكنها ليست الأدب المقارن نفسه، ولا بديلاً عنه"<sup>(٣٢)</sup>

### الأدب القومي وقضية الحدود اللغوية :

يتناول المؤلف تلك الحدود الفاصلة بين الأدب القومي والأدب الأجنبي، إن المؤلف يقدم عددًا من التساؤلات المهمة التي لا بد من الإجابة عليها حتى يركز الباحث المقارن على قاعدة متينة هذه التساؤلات هي: "ما هو الأدب القومي؟ ما هي الحدود التي إذا تعديناها جاز لنا أن نتحدث عن أدبٍ أجنبي، وعن تأثرٍ به وتأثيرٍ فيه؟ هل يقوم التحديد على أسسٍ سياسيةٍ وتاريخيةٍ، أو على أسسٍ لغويةٍ خالصةٍ؟ ويقطع المؤلف ببصيرة نافذة على القارئ الحيرة والبحث ويدلي برأيه حول هذه القضية"، إن

المؤلف يرى أن "الاعتماد على الأسس اللغوية الخالصة أكثر قربًا، وأدق منهجية، وأسهل تطبيقًا، ويذكر المؤلف سبب اختياره لهذا الرأي، لأن الحدود اللغوية أكثر ثباتًا، وأقل تقلبًا، من الحدود السياسية"<sup>(٣٣)</sup>، وهو في هذا الرأي يتفق اتفاقًا حاسمًا مع وجهة النظر الفرنسية التي ترى ضرورة اختلاف اللغة بين الآداب التي تخضع للمقارنة، ومن ثم فإن المؤلف يرى أن اللغة هي الأساس الذي يقوم عليه التفرقة بين الآداب القومية، ولا اعتبار للحدود السياسية، فالأدب العربي هو الأدب الذي كتب بالعربية سواء كان كاتبه عربيًا أم أصحاب تكوينٍ عربي، وينطبق الحال على بقية الآداب كالأدب الفرنسي والأدب الروسي وغيرهما.

يقسم المؤلف حديثه عن الأدب القومي والحدود اللغوية إلى قسمين، هي:

١- حين تكون المساحة اللغوية منطبقة تمامًا على المساحة السياسية، وهنا لا يواجه الباحث المقارن أية مشكلة تواجهه<sup>(٣٤)</sup>، ويمثل لذلك بالمقارنة بين الأدبين العربي والفارسي، أو الأدبين الفرنسي والإيطالي.

٢- حين تمتد اللغة السائدة في بلدٍ من البلدان إلى ما وراء حدوده السياسية، فهل تلحق آثار هذه البلاد بالأدب القومي للأمة التي تنسب إليها اللغة؟، ويلحق المؤلف تحت هذا القسم عددًا من الصور، هي:

أ. الكتاب والأدباء مزدوجو اللغة: أي الكتاب الذي يجيدون إلى جانب لغتهم القومية لغة أجنبية يكتبون فيها أو في اللغتين معًا إلى أي الأدبين ينتمي أديهم الأجنبي، ويضرب المؤلف أمثلة كثيرة منها ما كتبه جبران خليل جبران في اللغة الإنجليزية هل يدخل هذا النتاج الأدبي في تاريخ الأدب العربي أم الإنجليزي.

ب. الكتاب الذين ينتمون سياسيًا إلى أمة، ويتكلمون بلغة أمة أخرى مجاورة لها أكثر قوة وأوسع شهرة، والمثال الواضح الذي يقدمه المؤلف لهذه الحالة يتمثل في الكتاب السويسريين، فهل ما كتبه كيلر وهو أديب سويسري من زيورخ، أي أنه يكتب

بالألمانية، كاتب سويسري أم ألماني؟ وهل نستطيع أن نقارن بينه وبين كاتب سويسري آخر من جنيف مثلا، أي لغته الفرنسية؟ ويجب المؤلف عن هذا السؤال، إذ لا يرى أي مانعٍ يحيل دون إعداد مثل هذه المقارنات؛ لأننا أمام أدبين يختلفان لغة وقومية، وإن كان كلاهما سويسري، أي يستظلمان بقومية سياسية واحدة.

ج. الآداب التي تفصل بينها أبعاد شاسعة من الأراضي أو المحيطات، ويضرب المؤلف مثلا بأدب الولايات المتحدة الأمريكية، هل يدخل في نطاق الأدب الإنجليزي؟ وماذا عن أمريكا اللاتينية، وجها يتحدث الإسبانية، هل ندرس تاريخها الأدبي في نطاق الأدب الإسباني؟ وهل نعتبر أدب البرازيل أدبًا برتغاليًا لأنها تتحدث البرتغالية؟ ويرد المؤلف على ذلك أن الذين يلتزمون تعريف الأدب المقارن حرفيا، يرون هذه الآداب واحدة... فلا يمكن أن نقارن بين روائي إنجليزي وآخر أمريكي، إذا كانت الإنجليزية لغة إبداعها، ولكن ذلك لا يعني إنكار أن هناك أدبًا أمريكيًا مستقلًا عن الأدب الإنجليزي، فالأدب المقارن لا يتجاهل إحساس الكاتب القومي، أو القضايا الوطنية التي يعرض لها، أو الألوان المحلية التي يطلى بها أفكاره، ولا شخصية هذه الآداب وذاتيتها، وكل ما هنالك أنه يرى أن هذه الخصائص ليست بذات أهمية في الدراسة المقارنة، وأن الحدود القومية تساوى قليلا في مجال الاعتبار إذا لم تدعمها الحدود اللغوية<sup>(٣٥)</sup>، وهذا التوجه الأخير تدعمه المدرسة الفرنسية التاريخية التي تهتم في المقام الأول بالحدود اللغوية بين الآداب المقارنة، مخالفة بذلك توجه المدرسة النقدية الأمريكية التي ترى أن كلاً من الأدب الأمريكي والأدب الإنجليزي أدبان مختلفان؛ نظراً لتغاير الظروف والأحداث التي تحيط بكل أدبٍ منهما.

### غاية الأدب المقارن:

يحدد المؤلف غاية الأدب المقارن، فغايته يشي بها منهجه، وهي "أن يربط بين عملٍ أدبيٍّ وآخر وأن يوضح التأثيرات التي عانى منها أو تعرض لها أو مارسها مؤلفٌ

ما على آخرين، وأن يتبع سير الأفكار أو الأشكال الفنية على امتداد عصر بأكمله، وأن يفسر ظاهرة أدبية بواسطة ظاهرة أدبية أخرى شبيهة، وهو منهج يحدد غاية العلم بنفسه، وفي وضوح ... فغاياته إذن تاريخية وليست أسلوبية، والمقارن لا يدرس الموضوعات نفسها وإنما حركة سيرها، ومادته شيء متحرك كالتاريخ نفسه، وقد لاحظ فان تيجيم أن الأدب المقارن يضيف إلى متعة الإحساس بجمال الشعر والنثر، وإلى المشاعر والأفكار التي يثيرها في أعماقنا، متعة ثقافية أخرى، هي (الفهم والتفسير)"<sup>(٣٦)</sup>، والمؤلف في تحديده لغاية الأدب المقارن لا يساير تعريفه الذي وضعه في البداية، إذ يقصر الغاية على بيان التأثيرات المتبادلة بين الآداب، والاهتمام بالناحية التاريخية، مع الاهتمام بفهم النص الأدبي وتفسيره في ضوء التفاعل بينه وبين غيره من النصوص الأدبية، مبتعداً عن رحابة التعريف وشموليته، الذي فتح الباب أمام كل وجهات النظر المقارنة.

### بين الأدب العام والأدب العالمي:

ويرتبط بدراسة الأدب المقارن مصطلحان آخران، هما مصطلح (الأدب العام) ومصطلح (الأدب العالمي)، يتناولهما الطاهر مكي ويبين العلاقة بينهما وبين الأدب المقارن، وقد بين الدكتور مكي - حسب رأيه - أن الأدب العام مكملاً للأدب المقارن، وممهداً للأدب العالمي، وتناولهما كالتالي:

### أولاً: الأدب العام:

يبدأ المؤلف بحثه عن الأدب العام بالكشف عن الدور المهم الذي يقوم به الأدب المقارن، تمهيداً لحديثه عن أسباب نشأة الأدب العام، ويحصر المؤلف هذا الدور في جانبين رئيسين، هما:

١- توسيع آفاق الإنسانية، بمهمته في إثراء الأدب القومي حين يضيف إليه مما يتجاوز حدوده تأثيراً وتأثيراً.

٢- أنه الطريق إلى معرفة إنسانية شاملة تتجاوز الحدود القومية، وتكون الطريق إلى تاريخ أدبي عالمي<sup>(٣٧)</sup>

ثم يبدأ المؤلف في التفرقة بين الأدب المقارن والأدب العام، فإذا كان الأدب المقارن قد اقتص بدراسة العلاقات الثنائية بين أدبين أو أدبيين، فإن الأدب العام قد توسع ليشمل دراسة الظواهر المشتركة بين عددٍ من الآداب، فالأدب العام إذن لا يهتم بما هو قومي أو محلي، ويترك للأدب المقارن دراسة ما هو جزئي كدراسة ما بين أدبين من علاقات وظواهر مشتركة.

وقد كان فان تيجم أول من جعل للأدب العام شكلاً علمياً في كتابه (الأدب المقارن)، وقد فرق بينه وبين الأدب المقارن، فإذا كان الأدب المقارن يدرس العلاقة بين أدبين، فإن فان تيجم يبين أن الأدب العام هو دراسة الوقائع المشتركة بين عددٍ من الآداب، ويحدد فان تيجم أيضاً الفائدة التي يجنيها من دراسة الأدب العام في نقطتين، هما:

١- يساعد الأدب العام المؤرخ الأدبي لأمة واحدة أن يفهم المؤلف أو الكتاب الذي يدرسه على نحوٍ أكمل وأعمق .

٢- يعد الأدب العام من أعمق فروع الدراسات التاريخية وأبعدها أثراً<sup>(٣٨)</sup>، ويحدد المؤلف مجالات الأدب العام، الذي يدرس الظواهر الأدبية الجماعية، والتي يمكن أن ترد إلى اتجاهين، هما

أ. التيارات العالمية المتنقلة، التي تصدر عن مرسل ما كأن يكون كاتباً أو كاتباً أو مجموعة من الكتب، ثم تتسرب في اتجاهاتٍ مختلفةٍ أو في بلادٍ أجنبية عديدة، فيلاحقها الأدب العام إلى كل مكان تسربت إليه، ويمسك بأثرها عند أكبر عددٍ من الكتاب المتأثرين بها.

ب. الاتجاهات المشتركة التي تحدث في عصرٍ معينٍ دون أن نضع يدنا بدءًا على تأثيرٍ ما، تلك الاتجاهات التي تتعاصر وتتشابه عفوًا، دون أن يجيء هذا وليد تأثير أو تأثر، ومهمة الأدب العام أن يجمع هذه المتشابهات، وأن يصنفها ويفسرها ويردها إلى أسبابها<sup>(٣٩)</sup>.

### ثانيًا: الأدب العالمي:

أما الأدب العالمي فإن المؤلف يفرق بين مفهومين له، المفهوم الأول ارتبط بالشاعر الألماني جوته الذي يعد أول من استخدم هذا المصطلح عام ١٨٢٧م - وهو نفس الوقت الذي ظهر فيه مصطلح الأدب المقارن على يد أبل فيلمان - في معرض تعليقه على ترجمة مسرحيته " تاسو " إلى اللغة الفرنسية، غير أن جوته ألقى بالفكرة دون أن يقف عندها طويلاً، وكان يستهدف أملاً إنسانياً سامياً دون أن يفكر في المصاعب التي قد تواجه الفكرة، إذ كان يقترح دراسة تاريخية لتطور الآداب القومية، تختفي معها الفروق بين أدب وآخر، وتأخذ تركيباً عظيمًا تصبح معه أخيراً أدباً واحداً، تلعب فيه كل أمة دورها في نطاق المجموعة الإنسانية، وليس منفرداً، لأننا لو تركنا كل أدبٍ لنفسه فإنه سوف يحتضر إذا لم يجدد شبابه بأن يستعير من أدبٍ أجنبي آخر.

ومفهوم جوته هذا وإن كان يرمي إلى التلاقح والتفاعل بين الآداب المختلفة، إلا أن فكرته هذه التي طرحها - كما عبر هو نفسه - بعيدة المنال إن لم تكن مستحيلة التحقيق، ولذا فهو يؤكد أنه ليست الفكرة في أن تفكر الأمم بطريقة واحدة، وإنما عليها أن تتعلم كيف تتفاهم فيما بينها، وإذا لم يكن يعنيها الحب المتبادل، فلا أقل من أن تتعلم كيف تتسامح؛<sup>(٤٠)</sup> لأنه لا توجد أمةٌ مستعدة لأن تتراجع بإرادتها عن شخصيتها الأدبية والسياسية<sup>(٤٠)</sup>، الفكرة الأساسية التي ربما يرمي إليها جوته هي التفاعل الخلاق بين الآداب المختلفة، مما يولد لغةً للتفاهم بين الأمم والشعوب نتيجة هذا التفاعل.

أما عن المفهوم الآخر المعاصر للأدب العالمي، فإنه يغيّر مفهوم جوته ومن بعده، إذ يراد بالأدب العالمي مجموع الأعمال الأدبية الخالدة التي تنتمي إلى آداب قومية مختلفة؛ لأنها نتاج الإنسانية كلها، بترجمتها وشرحها، مثل: هوميرو ودانتي والمعلقات وأبي العلاء، والمنتبي وآخرون كثيرون تجاوزت شهرتهم كل الآفاق، وأدبهم دون أن نجرده من قوميته ينتمي إلى الإنسانية بقدر ما ينتمي إلى أوطانهم، فهو أدب قومي يتجاوز حدود القومية إلى ما هو أوسع منها همومًا وشعورًا وامتدادًا<sup>(٤١)</sup>، فكل النصوص والأعمال الأدبية التي تخطت حاجز القومية ولاقت رواجًا لدى المتبعين، وأثرت في غيرها من الأعمال الأدبية، يدخلها المؤلف في مفهوم الأدب العالمي، دون أن يؤثر ذلك على قومية تلك النصوص وانتسابها إلى آدابها القومية.

ولكن يحق للباحث بعد هذا التعريف للأدب العالمي أن يتساءل ما الذي يجعل نصًا أدبيًا يدخل ضمن قافلة الأدب العالمي؟ ويجب المؤلف عن هذا السؤال بأنه "لا يرتبط بعرقية الكاتب فحسب، وإنما يرتبط بقيم عالمية ينطوي عليها العمل نفسه، كما أن عالمية أدب ما ترتبط بمستوى الحضارة التي يمثلها أكبر ارتباط، وكلما كانت الحضارة مزدهرةً وأمسكت بتفوقها، كلما ساعد ذلك على أن يأخذ أدبها مكانه اللائق به في قافلة العالمية، ويضرب المؤلف مثالاً من واقع أدبنا العربي، ويتمثل في كتاب (طوق الحمامة) لابن حزم الأندلسي، فقد استطاع أن يعزف على الإيقاع العاطفي بمهارة، ويقدم لجمهرة العشاق خلاصة تجاربه في هذا المجال، دون وعظٍ رتيبٍ أو إثارة مفتعلة، وأن يلم بجوانب موضوعه في استقامته وجديته، وفي انحرافه وهزله، وأن يرتفع به فوق المحلية، ومن ثم فقد استطاع أن يأخذ كتاب طوق الحمامة طريقه إلى جل اللغات الأجنبية"<sup>(٤٢)</sup> فالعالمية من وجهة نظر المؤلف ترتبط بجانبين مهمين، الجانب الأول يتعلق بالعمل الأدبي ذاته من حيث جودته وقوته في التأثير والوصول إلى المتلقين، والجانب الآخر يرتبط بازدهار الحضارة التي ينتمي إليها النص الأدبي، فازدهار الحضارة يعود بالإيجاب على الأدب المرتبط بها.

ويختتم المؤلف كتابه بالحديث عن عدة الباحث المقارن، والتي يلخصها في:

- ١- يجب أن يكون الباحث المقارن مؤرخ أدب، فيهتم بتاريخ الآداب وبالآداب نفسها.
- ٢- ضرورة إتقان الباحث للغته الأم أولاً ومتمكناً منها، ثم يتقن بعد ذلك لغة أو أكثر من اللغات الأجنبية؛ لأن الإلمام باللغات كلها ضرب من الخيال.
- ٣- الإلمام بالمصادر والمراجع العالمية التي تعينه في بحثه، وبخاصة مصادر الأدب والأدب المقارن.
- ٤- يعد مجال الترجمة<sup>(٤٣)</sup> من المجالات المهمة التي يجب أن يهتم بها الباحث المقارن في دراساته.

وبعد هذا العرض لكتاب الدكتور الطاهر مكي يحق للباحث أن يدلي برأيه ويشير إلى عددٍ من الملاحظات حول هذا الكتاب المتميز في أفكاره، وهي:

- ١- حاول الطاهر أحمد مكي من بداية كتابه أن يبين لنا أن الأدب المقارن لم ينشأ من فراغ، وإنما سبقته مجموعة من بشائر المقارنة التي ساهمت في توجيه الفكر إلى المقارنة، أو بمعنى أدق إلى الموازنة، وإن لم تكتمل فيها أسس المقارنة، كما أشار أيضًا إلى أنه لا يوجد تعارض بين القدرة الإبداعية للأديب، وبين أصالة الفكرة التي تأثر بها.
- ٢- ارتكزت دراسة الطاهر مكي على دراسة غنيمي هلال، وقد بين الدور العظيم الذي قام به غنيمي هلال في إرساء أسس الأدب المقارن في الوطن العربي.
- ٣- إذا كان غنيمي هلال قد وقف بحته على المدرسة الفرنسية نظرياً وتطبيقاً، فإن الطاهر مكي يفتح الباب على مصراعيه أمام مختلف التيارات والمناهج المقارنة.

٤- حاول الدكتور الطاهر مكي أن يقدم لنا محاولة توفيقية بين منهجي الدراسة المقارنة التاريخي والنقدي، من أجل تخفيف حدة الصراع بينهما، وهو جهد مشكور يحسب له.

٥- حاول المؤلف أن يتوخى المآخذ التي وقع فيها غنيمي هلال، ولا سيما تضخم كتابه، إلا أن الطاهر مكي قد وقع في نفس المأزق، وقد تضخم كتابه كثيراً، فقد أضاف المؤلف الكثير من القضايا التي تتصل بالأدب المقارن والنقد الأدبي<sup>(٤٤)</sup>، كما استطرد في جزئيات كثيرة من الكتاب بما لا يجلب نفعاً للنظرية المقارنة، ويكفي أن نشير إلى حديثه عن الأدب المقارن في الاتحاد السوفيتي، فإن المؤلف يتحدث عن الأدب والثقافة في المجتمع الروسي، ثم تحدث عن حكم بطرس الأكبر والقيصرة كاترين والاتجاهات الاجتماعية في المجتمع الروسي، ثم يخلص من ذلك كله إلى الحديث عن الأدب المقارن فيما لايزيد عن صفحة، محدداً العوامل التي دفعت المقارنة الاشتراكية إلى الأمام، وهي: العناية بالأدب العالمي، ثم جعل الأدب السلافي كأداة اتصال بين الشرق والغرب، ثم تطعيم النقد الأدبي بالفكر الماركسي<sup>(٤٥)</sup>.

٦- ثم ملحوظة أخيرة<sup>(٤٦)</sup>، فقد تخطى المؤلف عن الإحالة إلى المصادر والمراجع التي استعان بها في كتابه إلا في حالاتٍ نادرة.

### الهوامش

- (١) الطاهر أحمد مكي: الأدب المقارن أصوله وتطوره ومناهجه، القاهرة، دار المعارف، الطبعة الأولى (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) ص ٧.
- (٢) نفسه ص ٧، ٨.
- (٣) الطاهر أحمد مكي: في الأدب المقارن دراسات نظرية وتطبيقية، دار المعارف، الطبعة الثالثة (١٩٩٧م/١٤١٨هـ) ص ٧.
- (٤) الطاهر أحمد مكي: الأدب المقارن أصوله وتطوره ومناهجه، السابق، ص ٩.
- (٥) نفسه ص ١٨.
- (٦) نفسه ص ٢١.
- (٧) نفسه ص ٢٤.
- (٨) نفسه ص ٢٥.
- (٩) نفسه ص ٢٤: ٢٦.
- (١٠) نفسه ص ٥٢، ٥٣.
- (١١) نفسه ص ٥٥: ٥٧.
- (١٢) نفسه ص ١٩٠، ١٩١.
- (١٣) نفسه ص ١٩٤.
- (١٤) نفسه ص ١٩٤.
- (١٥) نفسه ص ١٩٤.
- (١٦) نفسه ص ١٩٦.
- (١٧) نفسه ص ١٩٧.
- (١٨) نفسه ص ١٩٧، ١٩٨.
- (١٩) نفسه ص ١٩٩، ٢٠٠.
- (٢٠) نفسه ص ٢١١.
- (٢١) نفسه ص ٢١١.
- (٢٢) نفسه ص ٢١٢.
- (٢٣) نفسه ص ٢١٢.
- (٢٤) نفسه ص ٢١٣، ٢١٤.

- (٢٥) نفسه ص ٢٢٢.
- (٢٦) نفسه ص ٢٢٢.
- (٢٧) نفسه ص ٢٢٢، ٢٢٣.
- (٢٨) نفسه ص ٢٣٦.
- (٢٩) دانييل هنري باجو: الأدب العام المقارن، ترجمة غسان السيد، اتحاد الكتاب العرب ص ١٨.
- (٣٠) الطاهر أحمد مكي: الأدب المقارن أصوله وتطوره ومناهجه، السابق، ص ٢٣٦.
- (٣١) نفسه ص ٢٣٦، ٢٣٧.
- (٣٢) نفسه ص ٢٣٧.
- (٣٣) سبق وأن أشار الباحث إلى هذه النقطة عند حديثه عن تمسك الدكتور "محمد غنيمي هلال" بضرورة اختلاف اللغة بين الآداب المقارنة، وقد استعان الباحث بتفسير الدكتور محمد جلاء إدريس لهذا الأمر.
- (٣٤) الطاهر أحمد مكي: الأدب المقارن أصوله وتطوره ومناهجه، السابق، ص ٢٣٨.
- (٣٥) نفسه ص ٢٤٠، ٢٤١.
- (٣٦) نفسه ص ٢٤١، ٢٤٤.
- (٣٧) نفسه ص ٦١٤. وانظر أيضا هذه الفكرة في، بول فان تيجم: الأدب المقارن، دار الفكر العربي ص ١٧٣.
- (٣٨) فان تيجم: الأدب المقارن، السابق، ص ١٧٩، ١٨٠.
- (٣٩) الطاهر أحمد مكي: الأدب المقارن أصوله وتطوره ومناهجه، السابق، ص ٦١٨ : ٦٢٠.
- (٤٠) نفسه ص ٦٣٥، ٦٣٦.
- (٤١) نفسه ص ٦٣٩.
- (٤٢) نفسه ص ٦٤٠، ٦٤١.
- (٤٣) نفسه ص ٦٤٥، ٦٥٣.
- (٤٤) تناول المؤلف الكثير من القضايا التي تتصل بالأدب المقارن، منها: مجالات البحث في الأدب المقارن، والأنواع الأدبية الشعرية والنثرية، وقضية تعصير الأدب وعلاقتها بالمقارنة، والأدب المقارن وعلاقته بالفنون، وقد علق الدكتور حسام الخطيب على تناول الدكتور مكي لهذه القضايا في كتابه، فقد أخذ عليه أنه لا يترك شاردة ولا واردة تتصل بالأدب المقارن إلا أوردها، ثم يتساءل هل من الضروري أن يتناول كل مؤلف في كتابه كل القضايا والمشكلات الأساسية التي تتعلق

بالظاهرة المدروسة. انظر حسام الخطيب: آفاق الأدب المقارن عالمياً وعربياً، دمشق دار الفكر، بيروت دار الفكر المعاصر، الطبعة الأولى ١٩٩٢م ص ٢٣٢.

(٤٥) الطاهر أحمد مكي: الأدب المقارن أصوله وتطوره ومناهجه ص ١٦٣.

(٤٦) الملحوظتان الأخيرتان قد أشار إليهما الدكتور حسام الخطيب في كتابه: آفاق الأدب المقارن عالمياً وعربياً، السابق ص ٢٣٢، ٢٣٣.

## المراجع

### المصادر العربية:

- ١- حسام الخطيب: آفاق الأدب المقارن عالمياً وعربياً، دمشق دار الفكر، بيروت دار الفكر المعاصر، الطبعة الأولى ١٩٩٢م.
  - ٢- الطاهر أحمد مكي: الأدب المقارن أصوله وتطوره ومناهجه، القاهرة، دار المعارف، الطبعة الأولى (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).
- في الأدب المقارن دراسات نظرية وتطبيقية، دار المعارف، الطبعة الثالثة (١٩٩٧م/١٤١٨هـ).

### المصادر المترجمة:

- ١- بول فان تيجم: الأدب المقارن، دار الفكر العربي.
- ٢- دانييل هنري باجو: الأدب العام المقارن، ترجمة غسان السيد، اتحاد الكتاب العرب.